التوبيخ والنعمة

للقديس أغسطينوس

القمص تادرس يعقوب ملطى

التأديب الكنسى

(الأنا) أو (الذات البشرية) التى يتعبد لها أتباع بيلاجيوس دفعت بهم إلى رفض عمل النعمة فى حياة الإنسان ، فنادوا بأن عملها يقف عند غفران الخطايا السابقة دون أن يمتد إلى حياة الإنسان الحالية أو المقبلة. فالإنسان – فى نظرهم – قادر دون مساندة النعمة أن يحفظ نفسه ويجاهد حتى يبلغ الأبدية باستحقاقاته البشرية.

هذه (الأنا) بعينها جرفتهم لقبول فكر مناقض لفكرهم السابق اللهم إلا فى تضخيم الأنا وإشباع الذات البشرية ... إذ قالوا بعدم أهمية التأديبات الكنسية دعوى أن الكنيسة تؤمن بأن الفضائل جميعها بما فيها الطاعة والمثابرة هى نعمة من قبل الله ، فمن ينحرف عن طريق الحق أى يحرم من هذه الفضائل لا نفع للتأديبات معه إنما يكتفى الرعاة بالوعظ والصلاة دون التوبيخ أو الانتهار ، والنعمة قادرة على انتشاله .

والتأديب فى نظر الكنيسة لا يحمل إنكاراً لعمل النعمة، إنما هو حب صادر من قلب أم محبة تعمل بروح الرب الذى يؤدب أولاده (عب ١٢:٦،٧)، غايته أن يدرك الإبن خطأه فينسحق أمام الله متجاوباً مع النعمة الإلهية التى تبكته وتسنده وتقوده حتى النهاية

التأديب يفرز الذين يتجاوبون مع نعمة الله الذين يتقبلونه بالتوبة عن الذين يقاومون النعمة فيثورون على الكنيسة .

والتأديب لا يحرم النعمة مجانيتها لأنه ليس سداداً لثمن الخطية ولا إيفاء دين بل هو إعلان عن محبة الكنيسة للخاطىء وبغضبها لخطيته ، لهذا يلزم فى الراعى أثناء تأديبة أن يراعى:

١- أن يصدر من قلب أبوى مملوء رأفة ووداعة (١كو ٤:٢١)

٢- أن يقدم حسب حالة الخاطىء وإمكانياته .. ويقدم التأديب بصورة مرنة لا فى شكل قانون صارم أو إلزام جاف.

٣- يجب أن ينتهى التأديب بالتوبة المملوءة رجاء

وأخيرا فقد سجل لنا الآباء الأولون الكثير من إختباراتهم فى هذا الشأن وقد سبق لنا نشر بعضها

المترجم

النعمة والارادة الحرة والتوبيخ فى نظر الكنيسة

١- مقدمة

أخى العزيز المحبوب فالنتين

لقد قرأت رسالتك وشركائك فى خدمة الله، التى بعثتها (محبتك) مع الأخ فلورس Florusوالقادمين معه إلينا.

وإننى أشكر الله إذ تلمست منها سلامكم فى الرب ، واتفاقكم فى الحق ، وغيرتكم فى الحب .

فبينما يجاهد العدو أن يتغلغل فى وسطكم لتدمير بعضكم ، إذ بمراحم الله وصلاحه العجيب يحولان خداعاته لخير عبيدة. وبهذا لا ينجرف أحد إلى الشر بل بالعكس يتأسس البعض فى الصلاح.

وإننى لا أجد هناك داعياً لكى أطلب منكم أن تعيدو دراسة ما قد اخبرتكم به بما فيه الكفاية فى مقال طويل ، لأننى أدركت من إجابتكم كيف تقبلتم المقال . غير أنه – على أى الأحوال – لا تظنوا أنكم قد استوعبتموه بمجرد قراءتكم له.

فإن أردتم أن يكون المقال مثمراً على الدوام فلا تملوا من إعادة دراسته إلى أن يصير مألوفاً لكم ...

٢- نظرة الكنيسة الى الناموس والنعمة والارادة

لا يكشف لنا الرب فقط ما هو الشر الذى يلزمنا تجنبه وما هو الخير الذى يجدر بنا تنفيذه الأمر الذى توضحه حرفية الناموس ، وإنما أيضاً يعيننا فى ترك الشر وصنع الخير ، الأمر الذى لا يقدر أحد أن يفعله بغير روح النعمة . إذ بدون النعمة يصيرنا الناموس عاصين فنهلك. لهذا يقول الرسول (لأن الحرف يقتل لكن الروح يحيى).

فمن يستخدم الناموس كما ينبغى يتعلم منه ما هو الشر وما هو الخير ، ولا يثق فى قوته الذاتية فيهرب إلى النعمة التى بعونها يحيد عن الشر ويفعل الخير .

من هو هذا الذى يهرب إلى النعمة إلا الذى قيل عنه (من قبل الرب تتثبت خطوات الإنسان وفى طريقه يسر؟!)

وهكذا فإن الرغبة فى معونة النعمة هى بداية النعمة ...

وهنا تعترف بحرية الاختيار فى صنع الشر والخير. أما من جهة فعل الشر فإن كل انسان هو حر عن البر وعبد للخطية. وأما بخصوص عمل الخير فلا يقدر أحد أن يتحرر ما لم يحرره ذاك القائل (إن حرركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً)

كذلك ليس الأمر هكذا بمعنى أن الانسان عندما يتحرر من سلطان الخطية لا يعود يحتاج إلى عون مخلصه ، بل بالحرى يسمع منه (بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً)

إننى أبتهج إذ أجد فى أخينا فلورس Florus هذا الإيمان الذى هو بلا شك إيمان حقيقى نبوى رسولى جامعى وأما من لا يفهمونه فيليق بهم أن ينصلحوا وذلك بفضل الله ...

٣- أهمية النعمة الالهية

يليق بنا أن نفهم نعمة الله خلال يسوع المسيح ربنا هكذا : انه بنعمة الله يتخلص الإنسان من الشر ، وبدونها لا يستطيع قط أن يصنع أى أمر صالح ، سواء من جهة الفكر أو الإرادة أو العاطفة أو العمل . فبالكشف الذى للنعمة يتعرف الإنسان على ما ينبغى عليه فعله ، وبامكانياتها يقوم بتنفيذ ما عرفه بمحبة (أى بالنعمة تصير له رغبة صالحة وتنفيذ عملى صالح)

لقد سأل الرسول هذه العطية التى للإرادة الصالحة والعمل الصالح لأولئك الذين حدثهم قائلا (أصلى إلى الله أنكم لا تعملون شيئاً رديا ليس لكى نظهر نحن مزكين بل لكى تصنعوا أنتم حسناً)

من يقدر أن يسمع هذا ولا يتيقظ معترفاً أننا من الله ننال تحولنا عن الشر وفعلنا للخير ، إذ لا يقول (ننصحكم أو نعلمكم أو نحثكم أو ننتهركم) بل (أصلى إلى الله أنكم لا تعملون شيئاً رديا ... بل لكى تصنعوا أنتم حسناً) . ومع هذا فقد اعتاد أن يفعل هذه الأمور معهم أى ينصحهم ويعلمهم ويحثهم وينتهرهم لكنه يعلم تماماً أن هذه الأمور جميعها بمثابة غرس للزرع أو إرواء له ، وهذا لا قيمة له ما لم يستجيب الله لصلاته عنهم ، هذا الإله الذى يهب الثمار بطريقة سرية . وكما يقول معلم الأمم نفسه (إذ ليس الغارس شيئاً ولا الساقى بل الله الذى ينمى)

٤- أولاد الله ينقادون بروح الله :

لا ينخدع أولئك الذين يتساءلون قائلين: ما الحاجة لتبشيرنا أن نحيد عن الشر ونفعل الخير ما دمنا لسنا نحن العاملين بل (الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا؟)

بالحرى يجدر بهم أن يفهموا أنهم إن كانوا إبناء الله فبروح الله ينقادون ليفعلوا ما ينبغى فعله . وعندما يفعلون هذا يقدمون الشكر لله الذى به فعلوا ... وهذا لا يعنى أنهم لم يفعلوا شيئاً (أى لا نحرمهم من نسبة أعمالهم إليهم) .

أضف إلى هذا أن الله يكشف لهم ما ينبغى عليهم عمله ، حتى متى فعلوه أى بالحب وبهجة البر ، يفرحون متقبلين العذوبة الى يهبها الله لكى تعطى أرضهم غلتها . أما إذا لم يفعلوه سواء بعدم العمل نهائياً أو العمل بغير حب ، فيجدر بهم أن يصلوا لكى ينالوا ما لم يفعلوه بعد ، لأنه أى شىء يكون لهم ما لم يأخذوه ؟! ...

٥- النعمة والتوبيخ

يقولون : إذن ليت الذين لهم سلطان علينا لا يوبخوننا ولا يلومونا على ما لا نفعله إنما يكتفون بأن يوصونا بما يلزم فعله والصلاة عنا لكى نفعله .

الرد: ليفعل (من لهم سلطان) هذا كله مادام الرسل قد اعتادوا فعله ، إذ كانوا يوصون بما يلزم عمله ويوبخوا متى لم يفعل ويصلوا لكى ما يفعل .

مثال: فالرسول يأمر قائلا (لتصر كل أموركم فى محبة) كما يوبخ قائلا (والآن فيكم عيب مطلقاً لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض . لماذا لا تظلمون وتسلبون

بالحري ؟!) . لنسمعه إيضاً مصليا قائلاً (والرب ينميكم ويزيدكم فى المحبة بعضكم لبعض وللجميع)

إنه يوصى بأن تقام المحبة ، ويوبخ بسب عدم وجودها ، ويصلى لكى ما تزداد .

يا إنسان تعلم من وصيته ما ينبغى أن تكون عليه !

وتعلم من توبيخه فتترك خطأك !

وتعلم بصلاته لكى تنال ما ترغب فيه !

الاعتراض الأول

لماذا يوبخ الانسان على شىء لم ينله ؟!

٦- يقول : (كيف ينسب الخطأ الى ما دمت لا املك ما لم أأخذه (من خير) من الله ؟! فاذ لم يعطنى اياه فأنا لا املكه بالمرة بينما كان يمكن أن تكون لى هذه العطية العظمى)

إحتملونى يا إخوتى ليس كمن هو ضدكم يا من قلبكم مستقيم مع الله ، إنما أضاد الذين ينشغلون بالأمور الزمنية أو يفكرون بطريقة بشرية ، ممتدحاً الحق الذى للنعمة الإلهية السماوية .

فإذ هم يقولون بهذا إنما لأنهم فى شرهم لا يرغبون فى التوبيخ. يقول (أوصينى بما أفعله فإن فعلته أشكر الله الذى وهبنى تنفيذه ، وإن لم أفعله فلا توبخنى بل توسل إلى الله ليهبنى ما لم يعطنى إياه بعد ، أى يهبنى محبة الله الايمانية ومحبة قريبى الأمرين اللذين بهما تحفظ وصاياه . صل من أجلى لكى أتقبلهما (المحبة) ، وبها أنفذ أوامر الله بحرية وبإرادة صالحة .

كان يجدر أن أوبخ لو اننى لم أفعل هذا بسبب خطأى الشخصى ، أى لو كنت أستطيع بنفسى أن أهبه لنفسى أو أأخذه من عندياتى ومع ذلك لم أفعل . أو لو كان الله يلزمنى بالأخذ وأنا لم أرغب فى تقبله . ولكن ما دامت حتى الارادة ذاتها يعدها الله فلماذا تنتهرنى حين ترانى لا أريد فعل وصاياه ، بينما كان بالحرى أن تسأل الله نفسه لكى يهبنى الارادة أيضاً ؟!)

اولا : التوبيخ يدفعنا لطلب الله ليعمل فينا

نجيب على هذا فنقول : من كان لديكم من لا ينفذ وصايا الله المعروفة لديه فعلا ولا يريد أن يلام ، فإن عدم رغبته فى الانتهار دافعه عدم قبوله افتضاح خطاياه أمام عينيه . إنه لا يريدها أن تمس مع أن مثل هذا الألم (النابع من اللوم) يبعث فيه الرغبة فى البحث عن الطبيب .

إنك لا تريد أن تنكشف على نفسك لتراها مشوهة فترغب فى المصلح وتطلبونه كى لا تبقى هكذا فى البشاعة .

إنه خطأك أنت إيها الشرير ، وما هو أشر أنك لا تريد التوبيخ على شرك كما لو كانت الأخطاء بالحرى تمتدح أو ينظر إليها بغير مبالاه لا تستحق المدح ولا اللوم ، أو كما لو كان تخويف المنتهر أو فضحه هذه كلها أمور باطلة مع أنها تهب حافزاً مفيداً لطلب ذاك الصالح (الله) ، فيخرج من الاشرار المنتهرين أناساً صالحين مستحقين المديح

ماذا يرغب منا ذاك الذى لا يريد التوبيخ قائلا (بالحرى صلوا لأجلى ؟!)

أنه يجدر أن ينتهر لنفس السبب (رفضه الإنتهار) حتى ينتهر نفسه بنفسه .

وإذ يشعر بتأنيب الإنتهار تثور فيه خلال الإماتة النابعة عن سخطه على نفسه رغبة حارة فى الصلاة ، فتعينه مراحم الله ليزداد فى الحب ويمتنع عن الأمور الملومة المخجلة صانعاً الأمور المبهجة المستحقة للمديح .

هذا هو نفع الإنتهار الذى يطبق بطريقة سليمة، الذى يكون عنيفاً تارة وأقل عنفاً تارة أخرى وذلك حسب نوع الخطايا . ويصير هذا نافعا عندما يهتم بها الطبيب العلى. لأنه لا نفع للانتهار ما لم يدفع بالانسان نحو التوبة . ومن الذى يهب هذه التوبة إلا ذاك الذى تطلع إلى الرسول بطرس عندما أنكره ، وجعله يبكى ؟!

لهذا عندما طالب الرسول بضرورة انتهار المقاومين باعتدال أردف للحال (عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ ابليس)

٨- ثانياً : لماذا لا يرفضون الوصية والصلاة عنهم بينما يرفضون التوبيخ ؟

يقول غير الراغبين فى الإنتهار (أوصينى فقط وصل لأجلى كى أفعل ما تأمرنى به) .

لماذا بميولهم الشريرة لا يزدرون أيضاً بهذه الأمور قائلين (إننى أطلب ألا توصينى ولا تصلى من أجلى) لأنه أى إنسان صلى لبطرس حتى يهبه الرب توبه بها ينتحب إنكار سيده ؟! وأى إنسان علم بولس مقدماً له وصايا إلهية خاصة بالإيمان المسيحى إذ نسمعه يكرز بالإنجيل قائلا (وأعرفكم أيها الإخوة الانجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنى لم أقبله من عند انسان ولا علمته بل باعلان يسوع المسيح) ، فيجاب على الرسول : لماذا تتعقبنا لنتقبل منك ونتعلم ما لم تتقبله أنت ولا تعلمته من انسان . ان الذى أعطاك يقدر أن يعطينا بنفس الطريقة .

فإن كانوا لا يجسرون على القول بهذا ، بل يسمحون بالتبشير لهم بالإنجيل عن طريق بشر ، مع أن الانجيل لا يقبل من انسان، هكذا ليتهم يتقبلون أيضاً التوبيخ ممن لهم سلطان عليهم هؤلاء الذين يكرزون بالنعمة المسيحية دون أن ننكر قدرة الله على

اصلاح من يريده وقيادته الى الإماته المفيدة التى للتوبة من غير أن ينتهر مستخدماً قوة أدويتة الفعالة الخفية.

كذلك نحن لا نعكف عن الصلاة من أجل من نرغب فى إصلاحهم بالرغم من تطلع الرب إلى بطرس وجعله يبكى على خطيته دون أن يصلى من أجله إنسان . هكذا يليق بنا ألا نهمل التوبيخ بالرغم من قدرة الله على إصلاح حتى غير المنتهرين . إذ ينتفع الإنسان بالإنتهار خلال تحنن الله عليه واعانته له ، هذا الذى يقدر أن يسند حتى غير المنتهرين .

فإذ يدعى البعض ينصلحون بطريقة أو أخرى أو ثالثة ... بطرق متنوعة غير محصية ، من غير أن نقول أن هذا الاصلاح بفعل الطين إنما هو عمل الخراف ...

الاعتراض الثانى :

لماذا يوبخ الانسان

وهو لم ينل نعمة الطاعة ؟

٩- **يقولون** : يقول الرسول (لأنه من يميزك ؟ وأى شىء لك لم تأخذه ؟ وإن كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ ؟!) . فلماذا نوبخ ونلام وننتهر ونتهم إذ كيف نعمل ما لم نأخذه (الطاعة) ؟!

يرغب القائلون بهذا أن يظهروا بلا لوم فى عصيانهم لله ، إذ الطاعة الأكيدة هى نفسها عطية الله، وهذه العطية يلزم بالضرورة أن توجد فيمن يسكنه الحب الذى هو بلا شك من الله ، يهبه الآب لأولاده.

يقولون أننا لم نأخذ هذا فلماذا نوبخ كما لو كنا قادرين على الأخذ من أنفسنا وبمحض اختيارنا ونحن الذين رفضنا ؟

الرد : أولا : بالنسبة للذين لم يتجددوا (بالمعمودية) إلى الآن فانه بتوبيخهم عن عدم طاعتهم لله يصيرون غير راضين عن أنفسهم. فإذ خلق الله الإنسان من البداية مستقيماً... فإن الفساد الأول الذى خلاله عصى الإنسان الله جاء من الإنسان نفسه بسقوطه بارادته عن الاستقامة التى خلقه الله عليها فى البداية ، وبهذا صار فاسداً .

أفلا ينتهر هذا الفساد فى الإنسان لمجرد عموميته فى الجنس البشرى ؟!... كلا ! لينتهر هذا الفساد العام أيضاً فى الأفراد ، لأن عدم وجود إنسان متحرر منه ليس سبباً يمنع إنتهارهم .

حقاً إن هذه الخطية الأصلية يمكن أن يقال عنها أنها خطية الغير إذ صار إليها الإنسان خلال والديه ، لكن هذا لا ينفى نسبتها إلينا أيضا إذ يقول الرسول (الجميع أخطأوا)

اذن لينتهر ذاك المصدر المستحق للعنة ، حتى أنه خلال الإماتة التى للإنتهار تصير الإرادة فى التجديد ، وذلك متى كان المنتهر ابن موعد ، فإذ يكون الإنتهار والتعنيف من الخارج بعمل الله فى الداخل لكى يريد .

ثانيا : أما بالنسبة للذى تجدد فعلا وتبرر غير أنه عاد فإرتد إلى حياة شريرة ، فإن مثل هذا لا يقدر أن يقول (أنا لم أأخذ لأنه قبل الشر بحرية اختياره وفقد نعمة الله التى أخذها .

فخلال التأديب النابع عن التوبيخ يبكى بكاء نافعاً ويعود إلى أعمال صالحة ، أو بالحرى يظهر نفع التوبيخ بأكثر وضوح .

ومع هذا فلكى ينفع الإنتهار فيلزم الاعتماد على الله كلية ...

الاعتراض الثالث

لماذا يوبخ الإنسان

وهو لم ينل نعمة المثابرة ؟

١٠-أما يرغب فى التوبيخ ذاك الذى يحتج قائلا (ماذا أفعل إننى لم أأخذ ؟!) متى ظهر بوضوح أنه أخذ لكنه بخطئه يفقد ما أخذه ؟

يقول : (أننى أخذت الإيمان الذى يعمل بالمحبة ، لكننى أأخذ (**المثابرة حتى النهاية !**) هل يجسر أحد فيقول أن هذه المثابرة ليست عطية من الله ؟ فلو أن شيئاً عظيماً كهذه يحصل عليها الإنسان من نفسه ما كان الرسول يقول (أى شىء لك لم تأخذه ؟) إذ له هذه المثارة كما لو كان لم يأخذها !

الرد : لإننا بالحقيقة لا نقدر أن ننكر أن المثابرة فى الصلاح أو التقدم إلى النهاية هو أيضاً عطية من الله ، إذ لا تكون لنا ما لم توهب لنا من ذاك الذى قيل عنه (كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هى من فوق نازلة من فوق عند أبى الأنوار) ومع هذا فلا يمكننا أن نتجاهل أهمية غير المثابرين (عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ إبليس) . إذ قدم الرسول هذا القرار بسبب نفع الإنتهار قائلا كما سبق أن أشرت (مؤدبا بالوداعة المقاومين عسى أن يعطيهم الله توبة) .

فإن كنا نقول أن مثل هذه المثابرة هكذا هى ممدوحة وهكذا هى مطوبة بطريقة يفهم منها أنها ليست من الله ، فاننا بهذا نحرم مما قاله الرب لبطرس (ولكننى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك) لأنه ماذا طلب من أجله سوى أن يثابر إلى النهاية ؟!

فلو كان فى إمكانية الإنسان أن ينال المثابرة من بشر لما كان يطلبها من الله . فإذ يقول الرسول (اصلى الى الله أنكم لا تعملون شيئاً رديا) ، ماذا يطلب من الله إلا أن يهبهم المثارة ، لأنه (لا تعملون شيئاً رديا) لا تخص من يطلب الصلاح دون أن يثابر فيه مرتداً إلى العمل الردىء الذى كان يليق به أن يتركه ؟!

كذلك يقول الرسول (أشكر إلهى عند كل ذكرى إياكم دائماً فى كل أدعيتى مقدماً الطلبة لأجل جميعكم بفرح بسبب مشاركتكم فى الانجيل من أول يوم إلى الآن ، واثقا بهذا عينه أن الذى ابتدأ فيكم عملا صالحا يكمل الى يوم يسوع المسيح) . بماذا يعدهم به من قبل مراحم الله سوى المثارة فى الخير إلى النهاية ؟!

وأيضاً حيث يقول (يسلم عليكم ابفراس الذى هو منكم عبد المسيح مجاهد كل حين لأجلكم بالصلوات لكى تثبتوا كاملين وممتلئين فى كل مشيئة الله) ، ماذا يعنى بقوله (لكى تثبتوا) إلا (لكى تثابروا) ؟! إذ قيل عن الشيطان أنه (لم يثبت فى الحق) إذ كان فيه لكنه لم يستمر فيه ...

وعندما نصلى من أجل من هو قائم أن يبقى قائماً ماذا نطلب سوى المثابرة ؟!

كذلك عندما يقول الرسول يهوذا (القادر أن يحفظكم غير عاثرين ويوقفكم أمام مجده بلا عيب فى الابتهاج) أما يعلن بوضوح أن المثابرة فى الصلاح هو عطية إلهية ؟! لأنه ماذا يعنى الذى (يحفظكم غير عاثرين ويوقفكم أمام مجده فى الابتهاج) سوى المثابرة الصالحة التى يهبها الله ؟!

وما هو هذا الذى نقرأه أيضاً فى سفر أعمال الرسل (فلما سمع الأمم ذلك كانوا يفرحون ويمجدون كلمة الرب وآمن جميع الذين كانوا معينين للحياة الأبدية ؟! من

يمكن أن يكون (معينا للحياة الأبدية) إلا بواسطة عطية المثابرة ؟! إذ عندما نقرأ (الذى يصبر (يثابر) إلى النهاية فهذا يخلص) أى خلاص هذا يعنى سوى الحياة الأبدية ؟!

وعندما نطلب فى الصلاة الربانية من الله الآب قائلين (ليتقدس إسمك) ماذا نسأل سوى أن يتقدس إسمة فينا ؟! وإذ يتم ذلك بواسطة جرن التجديد (المعمودية) لماذا يسألها المؤمنون يومياً إلا لأنهم يثابرون فيما هو فيهم فعلا ؟! وقد فهم الطوباوى كبريانوس هذا هكذا كما جاء فى شرحه للصلاة عينها **قائلا (... اننا نسأل نحن الذين تقدسنا فى المعمودية متوسلين أن نثابر فيما قد بدأنا فيه).**

تأملوا هذا الفكر الذى نادى به هذا الشهيد العظيم، إذ يرى فى كلمات السيد المسيح هذه أن يلتزم المؤمنون بالصلاة كل يوم ليثاروا فيما قد بدأوا فيه .

أذن الأمر الذى لا شك فيه أن من يترجى الرب لكى يهبه المثابرة فى الخير يعترف بأن المثابرة هى هبة من الله .

١١- المثابرة كهبة من الله لا يعفينا من المسئولية

ومع أن الأمر هكذا إلا أننا ننتهر الذين كانوا يسلكون حسناً ولم يثابروا فيه ، ويحسب إنتهارنا محقا ، لأنه باختيارهم إنحرفوا عن الحياة الصالحة إلى الحياة الشريرة ، فصاروا مستحقين التوبيخ .

فإذ لم ينتفعوا من الإنتهار وظلوا فى عدم مثابرتهم سالكين فى حياتهم المهلكة إلى الموت ، فسيستحقون الدينونة الإلهية إلى الأبد . وليس لهؤلاء أن يعتذروا قائلين ما

يرددونه اليوم (لماذا ندان عن تحولنا من الخير إلى الشر ونحن لم نأخذ المثارة التى بها نقطن فى الصلاح ؟

فإن مثل هذا الاعتذار لن يعتقهم من اللوم العادل لأنه إن كان يحسب كلمة الحق لا ينعتق من الدينونة التى صارت خلال آدم إلا الذين يؤمنون بيسوع المسيح ، مع أنهم قادرون أن يحتجوا بأنهم لم يسمعوا عن انجيل المسيح . فكيف يحتج هؤلاء بقولهم أننا لك نأخذ المثابرة ؟

فإن احتجاج القائلين (نحن لم نسمع) يبدو أكثر إنصافا من القائلين (نحن لم ننل المثابرة) إذ يقال للآخرين (يا انسان كان يليق – إن أردت – أن تثابر فيما قد سمعت وحفظت) الأمر الذى لا يقال للأولين (فيما لم نسمعه كان يمكن أن تؤمن إن أردت) !

١٢- سقوط فئة غير المثابرين تحت الدينونة

تبعاً لهذا فإن كل من :

الذين لم يسمعوا الإنجيل ،

والذين سمعوه وصاروا إلى حال أفضل لكنهم لم يتقبلوا المثارة ،

والذين سمعوه لكنهم رفضوا المجىء إلى المسيح ، أى رفضوا الإيمان به حيث قيل (لا يقدر أحد أن يأتى إلى إن لم يعط من أبى).

والذين لم يتقبلوا جرن التجديد الوحيد وماتوا وهم بعد فى سنهم الصغير عاجزين عن الايمان إذ كان يلزمهم أن ينحلوا عن الخطية الأصلية (الجدية) بواسطة هذا الجرن.

هؤلاء جميعاً لا يختلفون عن بعضهم من جهة كونهم جماعة مدانة ، إذ ينقاد جميعهم إلى الدينونة .

أما البعض فيتميزون عنهم ، لا باستحقاقاتهم الذاتية بل بنعمة المخلص ، أى يتبررون مجاناً فى دم آدم الثانى . لهذا نسمع (من يميزك ؟! وأى شىء لك لم تأخذه ؟ وإن كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ ؟)

يجدر بنا أن نفهم أنه لا يقدر أحد أن يتميز عن تلك الكتلة التى للهلاك الى نبعت عن آدم الأول إلا الذى له هذه العطية التى تقبلها بنعمة المخلص .

هكذا عظيمة هى هذه الشهادة الرسولية حتى وضعها الطوباوى كبريانوس فى كتابته إلى كيورينوس Quirinus تحت عنوان قائلا (يلزمنا ألا نفتخر فى شىء مادام ليس لنا شىء من ذواتنا)

١٣- اذن أولئك الذين تميزوا عن الدينونة الأصلية بمثل هذا الفيض من النعمة الإلهية يشترط فيهم بلا شك ان يكونوا قد سمعوا الإنجيل ، وبسماعهم له آمنوا به ، وفى إيمانهم العامل بالمحبة يثابرون الى النهاية . فاذا ما حدث أن ضلوا الطريق فبإنتهارهم ينصلحون بالرغم من أن البعض يرحبون الى الطريق الذى تركوه دون أن يوبخهم أحد ...

٢٠- المثابرة تكشف تلاميذ الله الحقيقيين

(بعدما تحدث عن الأختيار موضحاً أن أولاد الله الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ، هؤلاء دعاهم وبررهم ومجدهم . هؤلاء لن يهلك منهم أحد ، عاد ليؤكد ضرورة المثابرة التى تميز فى نهاية حياة الإنسان أولاد الله الحقيقيين من غيرهم اذ يقول) : أخيرا فإن المخلص نفسة يقول (ان ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى) .

فهل يحسب يهوذا من بين تلاميذه مادام لم يثبت فى كلامه ؟! هل يحسبون من تلاميذه أولئك الذين حدثهم الانجيل بهذه الطريقة وذلك عندما أوصاهم الرب بخصوص جسده أن يؤكل ودمه أن يشرب اذ يقول الانجيلى : (قال هذا فى المجمع وهو يعلم فى كفر ناحوم فقال كثيرون **من تلاميذه** اذ سمعوا أن هذا الكلام صعب ، من يقدر أن يسمعه ؟! فعلم يسوع فى نفسه **أن تلاميذه يتذمرون** على هذا فقال لهم أهذا يعثركم ؟! فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً الى حيث كان أولا ؟! الروح هو الذى يحيى أما الجسد فلا يفيد شيئاً . الكلام الذى اكلمكم به هو روح وحياة . ولكن **منكم قوم لا يؤمنون** لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ؟ ومن هو الذى يسلمه ؟ فقال لهذا قلت لكم أنه لا يقدر أحد أن يأتى الى ان لم يعط من أبى)

ألم يلقبهم الإنجيل (تلاميذ) ؟ ومع هذا لم يكونوا تلاميذ حقيقيين لأنهم لم يثبتوا فى كلمته ، وذلك كقوله (ان ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى) فإذ ليس لهم المثابرة بكونهم ليسوا تلاميذ ، فإنهم ليسوا أبناء حقيقيين حتى وإن ظهروا هكذا أو دعوا هكذا .

اذن نحن ندعو الناس (مختارين) و (تلاميذ المسيح) و (أولاد الله) لأنهم هكذا يدعون اذ يتجددون (بالمعمودية) ونراهم يعيشون بتقوى ، ولكن هذا يصير حقيقة اذا ثبتوا فيما دعوا فيه .

٢٣- الله يهب محبيه المثابرة

عندما قال الرسول (نحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله) عالماً أن البعض يحبون الله لكنهم لا يثابرون فى هذا الطريق الصالح حتى النهاية ، لهذا أردف قائلا (الذين هم مدعوون حسب قصده) . إذ فى حبهم لله يثبتون حتى النهاية ، لكنهم أحياناً يضلون الطريق فيرجعون حتى يثبتوا للنهاية فيما قد بدأوا فيه من صلاح .

ولكى يتكشف لنا ماذا يعنى بقوله (المدعوون حسب قصده) أضاف ما سبق أن أشرت إليه **(لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرا بين اخوة كثيرين . والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم ايضا) حسب قصده (والذين دعاهم فهؤلاء بررهم ايضا . والذين بررهم فهؤلاء مجدهم ايضا)**

كل هذه الأمور حدثت فعلاً . أنه سبق فعرفهم فعينهم ودعاهم وبررهم.

الجميع (المختارون فعلا) سبق فعرفهم وسبق فعينهم .

كثيرون دعوا فعلا وتبرروا ومن يبقى إلى النهاية فهؤلاء (مجدهم أيضاً) وهذا لم يتم بعد .

وبالرغم من أن هذين الأمرين أى أنه دعاهم وبررهم لم يتحققا بعد فى كل من قيل عنهم إلا أنه لا يزال يوجد كثيرون إلى نهاية العالم سيدعون وسيترررون . وقد أستخدم صيغة الماضى – حتى بالنسبة للأمور المقبلة – كما لو كان الله قد سبق فأعدها منذ الأزل .

إذن كل من سبق الله فعرفهم فعينهم ودعاهم وبررهم ومجدهم، أقول ليس فقط الذين لم يولدوا بعد الميلاد الثانى (بالمعمودية) بل والذين حتى لم يولدوا بعد (أى الأجيال المقبلة) هؤلاء هم أبناء الله ومطلقاً لا يهلكون (كمعرفته السابقة)

حقاً هؤلاء آتون إلى المسيح. وهكذا يأتون كما يقول المسيح نفسه (كل ما يعطينى الآب فإلى يقبل ومن يقبل إلى لا أخرجه خارجاً) . وكما يقول بعد هذا بقليل (هذه مشيئة الآب الذى أرسلنى أن كل ما أعطانى لا أتلف منه شيئاً) فمنه توهب المثابرة فى الصلاح حتى النهاية ...

٢٤- فمثل هؤلاء الذين يحبونه يشترك الله معهم فى العمل ليحول كل الأمور للخير ... كل الأمور حتى انحرافهم عن الطريق يحوله للخير (الذين يحبونه) إذ يعودون أكثر انسحاقاً وأعمق تعلماً . إذ يدركون أنه يليق بهم أن يسلكوا فى الحياة المستقيمة فرحين برعدة ، غير معجبين بأنفسهم ولا معتدين بذواتهم كما لو كان ذلك بقوتهم الشخصية ، وبهذا لا يقولون فى إعتداد (لا أتزعزع إلى الأبد)

من أجل هذا قيل لهم (إعبدوا الرب بخوف وإهتفوا برعدة لئلا يغضب الرب فتضلوا عن طريق الحق) . وماذا يعنى هذا سوى أنه يليق بالسالكين فى طريق الحق

أن يضعوا فى ذهنهم أن يعبدوا الله بخوف ، أى (غير مهتمين بالأمور العالية بل منقادين إلى المتضعين)

ليفرحوا فى الرب ، لكن برعدة ! لا يفتخروا فى شىء ، لأن ليس لهم شىء من ذواتهم بل من يفتخر فليفتخر فى الرب ، لئلا يضل عن طريق الحق الذى بدأ فعلا السلوك فيه ...

وقد استخدم الرسول بولس نفس الكلمات قائلا **(تمموا خلاصكم بخوف ورعدة)** معللا ذلك بأن (الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل مسرته الصالحة His good pleasure) . فالذى يقال فى إعتداده بذاته (لا أتزعزع إلى الأبد) كان بلا خوف ولا رعدة . لكنه كابن للموعد وليس ابن هلاك إختير فى ابتعاده عن الله ما قاله (... حجبت وجهك فصرت مرتاعاً)

أنظروا كيف تعلم أكثر وإزداد إتضاعا ... لقد صار مرتاعاً حتى وجد نفسه ! وإذ صار فى إتضاع ذهن لم يتعلم عن الحياة الأبدية فحسب بل وعرف التغيير التقوى والمثابرة فى الحياة التى فى رجائها يلزم أن يثبت .

هذا ما حدث أيضاً مع الرسول بطرس ، ففى طمأنينته قال (إنى أضع نفسى عنك) ناسباً إلى نفسه الغيرة التى سينالها من ربه . لكن الرب حجب وجهه عنه فصار مرتاعاً حتى أنه من رعبته من الموت انكره ثلاث مرات . وماذا يعنى (فإلتفت الرب ونظر إلى بطرس) سوى أنه أعاد إليه وجهه بعد قليل بعدما كان قد حجبه عنه ؟!

لقد صار مرتاعا فتعلم الا يعتد بذاته ، وبهذا حول الرب حتى هذا الأمر لخيره ، هذا الذى يشترك فى العمل محولا كل الأمور للخير للذين يحبونه ...

٢٥- إذن ليته لا يقل أحد أنه يلزم عدم توبيخ أحد عند إنحرافه عن طريق الحق مكتفياً بالطلب من الله أن يهبه الرجوع والمثابرة . فإن مثل هذا القول لا ينطق من مؤمن ! فان كان الذى يتوبخ مدعواً من الله حسب قصده فسيشترك الله فى العمل ليجعل من التوبيخ خيراً له .

أما معرفة عما إذا كان الشخص مدعواً أم لا (فهذا ليس لنا أن نعرفه) ... إنما يلزم التوبيخ بحب صانعين ما ينبغى عمله .

حول نعمة المثابرة

أثار البيلاجيون هذا التساؤل: **مادامت المثابرة – فى ايمان الكنيسة – هبة الهية ، فهل وهبها الله لآدم ؟ فان كان الله قد وهبها لماذا اخطأ آدم ولم يثابر فى الصلاح الذى كان فيه ؟ واذ كان لم يهبها له فما ذنب ادم ما دام ليست له هذه النعمة؟**

أجاب اغسطينوس على هذا التساؤل باستطالة، الأمر الذى جعلنى أكتفى بعرض ملخص له مع كثير من التصرف.

١- نال آدم نعمة المثابرة من نوع مغاير لما نناله حالياً. فإذا لم يكن آدم يئن من صراع بين شهوة الجسد وشهوة الروح لذلك كانت له (نعمة المثابرة) كنعمة المثابرة التى للملائكة وهى تسند المخلوق ليفعل الخير ان اراد ، اى تهبه قوه الا يخطىء ، لكنها لا تعطيه عدم قدرة عن ان يخطىء ، اذ ليست له معرفة بالخطية.

٢- إن ثبت المخلوق فى هذه النعمة كان له أن ينال نعمة أعظم وهى انه لا يقدر أن يخطىء – وهذه مكافأة ينالها المخلوق من الله إذ يصير له إرادة الله القادرة على الخير لكنها لا تقدر أن تخطىء إذ ليس هذا من طبعها .

وكما يرى أغسطينوس أن الملائكة الذين سقطوا فى النعمة الأولى بحرية إرادتهم فقدوا نوال الثانية . أما الذين ثبتوا فنالوا الثانية ولهذا فان الملائكة الحاليين صاروا – فى نظر أغسطينوس – عاجزين عن السقوط ، الأمر الذى خسره آدم .

وهنا يميز اغسطينوس بين حريتين :

١- حرية أقل وهى أن المخلوق يقدر إلا يخطىء، لكنه إن أراد أن يخطىء يسقط.

٢- حرية أعظم هى أن المخلوق تصير له ارادة خالقة وفكر خالقة ، فيصير بقدر ثباته فى الرب عاجزاً عن أن يخطىء ... وهذه توهب للانسان بالكمال فى الأبدية .

وهذا هو غاية التجسد فباتحاد اللاهوت بالناسوت وهب للطبيعة البشرية فى شخص المسيح نعمة ، ليست شيئاً خارجا عن الله، بل وهبتنا الإبن الكلمة ، الرب يسوع ذاته ، نعمة للمؤمنين.

بهذه النعمة يصير الإنسان فى المعمودية - خلال اتحاده بالمسيح - ابنا لله ، فيصير له فكر المسيح وارادته وتصرفاته الذى لا يقدر أن يخطىء . من أجل هذا يقول الحبيب (أولاد الله لا يخطئون) . وهذا هو كمال حرية البنوة . هذا بقدر ما يثبت الإنسان فى المسيح ثبوتا عملياً ، إذ تصير له حرية من نوع سام سماوى قدر ما ينحنى خاضعا لفكر المسيح .

لا نفهم من هذا ان كل من اعتمد لن يخطىء ولا كل من سلك بالروح لن يخطىء . فمتى أراد الإنسان أن يفلت من يد الله يسقط حتما ... وان كان الله لا يتركه سريعاً ...

أخيراً يحذرنا القديس من الاعتداد بأنفسنا اذ ظننا أننا لن نخطىء ، مطالباً الكنيسة أن تؤدب الذين كانوا قبلا فى الإيمان وانحرفوا . لكن لتؤدب فى محبة من أجل توبتهم دون أن تستخدم وسائل عنيفة زمنية .